قصة مصرية

شمس

بقلم محمد امين حمونه

وفد «عمران» الى القاهرة لأول مرة فى حياته ، وقد كان فى بلده فى الريف مابين الساقية والشادوف يسمع عنها وعن مظاهر الترف والنعمة التى تحوطها ، مايحير عقله ويأخذ بلبه ، وما دفع به شوقا إلى أحضانها يتلمس ماتخيله من مشاهد الفتنة والاغراء التى تفيض عليها . وليتلمس أيضاً البركة فى زيارته لأضرحة أولياء الله حتى تحل عليه النعمة فتجعل موسم القطن باسما والحالة فى رخاء حتى يتمكن من أن يبيع الثمانية قناطير المخزونة عنده من العام الماضى .

نزل (عمران) من المحطة فأدهشته تلك العظمة المتجلية فى محطة القاهرة وفى ميدانها وفى المبانى الشاهقة التى كان يمر بها تباعا أثناء ركوبه الترام الى « المشهد الحسينى » واعتقد فى نفسه انه فى « الجنة » التى كان يتخيلها ويسمع عنها من التعاليم الدينية التى كان يلقنه إياها الشيخ «يونس» فقيه القرية وعالمها اللوذعى !! فالفارق عنده الساعة بين مايراه وبين ما ألفه فى عزبة « ابوسويلم » كالفرق بين الدار الدنيا ودار الآخرة التى انتصب خيالها فى ذهنه .

كان (عمران) يكثر من تردده على «مسجد الحسين» للتمسح بأعتاب مقصورته وتمريغ وجهه على الحاجز النحاسى الذى يحوط المقصورة ، فاذا فرغ من هذا بدأ بتلاوة الفاتحة وما يتيسر من القرآن ، ثم يرفع يده ويشخص ببصره إلى السماء ويأخذ فى تلاوة دعاء معروف لديه وهو : أنه بفضل وبركة الحسين سبط المصطفى ينيله الله مقصوده ويحقق أمنيته ، فيبيع أقطانه المخزونة ويوفى دينه ، ثم يوجه الكلام إلى نفسه بأنه إذا تحققت هذه الأمانى أوجزء منها فسوف ينذر الشموع للحسين ويوزع الصدقات من اللحم والثريد على الفقراء فى ليالى المولد ، فاذا فرغ من كل ذلك تنفس ملء صدره وقد شعر براحة تامة كأنه أدى ديناً كبيراً أو وفى نذراً مكتوبا عليه .

ويلتقى (عمران) صدفة بالشيخ يونس مأذون القرية وفقيهها ، فيبتهج لذلك أيما ابتهاج ، لأن الصدف السعيدة قد دفعته إلى لقيا الشيخ ، فقد سبق أن مكث بالقاهرة نحو سنوات أربع أيام أن كان يطلب العلم بالازهر ، فهو ولا بد يعرف طرق القاهرة ودروبها ومشاهدها وأعلامها ومقر أولياء الله وأضرحتهم ، فيستطيع أن يصحبه إلى زيارتهم والتبرك بمقامهم .

ويقصد فى صبيحة اليوم التالى إلى «أم هاشم» والسيدة نفيسة والمتولى والامام وغيرهم للزيارة ، وليقرأ الفاتحة ، نيابة عن كل من كلفه من أهل قريته بقراءتها ، وكان يلتمس البركة فى

زيارته لضريح كل من هؤلاء ، طالباً ان تحل عليه النعمة وعلى آله حتى يستطيع أن يزور « اهل البيت » فى موسم الحج القادم .

* * *

نشأ (عمران) فى (كفر ابوسويلم) من اعمال مركز ميت غمر ، صبيا يافعاً تلوح على محياه امارات الفطنة والذكاء... يقصد فى الصباح الباكر (كتاب الحاج عبدالتواب) فيقرئه القرآن ويرويه الأشعار ويلقنه مبادىء القراءة والحساب ، فاذا جاءت الظهيرة تناول القليل من الطعام ثم يقصد إلى (حقل الباشا) الذى يعمل فيه ابوه ، ليساعده فى اداء بعض الشؤون إلى ان تحين ساعة الغروب ، فيصحب الولد اباه إلى المسجد لتأدية فريضة الصلاة ، فاذا فرغا منها ، فانهما يظلان إلى موعد صلاة العشاء ، حيث يلتئم شملهما بالشيخ يونس مأذون القرية وعم متولى الفقيه الأعمى والحاج عبدالتواب معلم القرية وغيرهم ، يتحدثون عن اخبار الزراعة وجنى القطن والرى واخبار العمدة وموعد الانتخابات وعن كل مايحوط بهذه القرية الصغيرة من مظاهر البساطة والقناعة ، فاذا اذن صوت المؤذن بصلاة العشاء نهضوا جميعاً إلى تأدية فريضتها ، ويبتهلون إلى الله فى حرارة وتقوى ان يثبت اقدامهم وينصرهم على اعدائهم وان تحل بركته عليهم وعلى آلهم اجمعين .

* * *

وخرج (عمران) كعادته فى صبيحة كل يوم إلى « المكتب » وكانت الشمس قد بدأت ترسل خيوطها الذهبية على المزروعات ، فيسقط الندى تحت تأثير حرارتها ، وكان يرى عن بعد سرب من فتيات القرية الحسان يرفلن فى ملابسهن الريفية ، وقد اتشحت كل منهن بمئزر اسود . ووضعن على رءوسهن جرات الماء لملئها من الترعة المجاورة ، وكن يرنمن بأصواتهن الجميلة فى هذا الصباح الباكر ، كالطيور على غصون الاشجار ، تلك الأغنية الحلوة الريفية (عطشان ياصبايا دلونى على السبيل)

كم من مرة سمع (عمران) مثل هذا فلم يؤثر فى حسه ووجدانه بمقدار ما أثر اليوم ، فقد كانت تتوسط الصبايا فتاة اشتهرت بين بنات قومها بما حبتها به الطبيعة من رقة الصوت ، وكان صوتها هذا الحنون ، يردد أعذب الأغانى وأحلاها فيحاكى ماكانت تترنم به العصافير فى هذا الوقت الباكر . وظل (عمران) يشيعهن بانظاره حتى اقتربن من مورد الماء فكشفن عن سيقانهن العارية ، ونزلن لتنظف كل واحدة وعاءها قبل ملئه . ووقف (عمران) متواريا فى ظل شجرة يتمتع نفسه وحسه بسحر هذا المنظر وليشبع نفسه بصورة حية من جمال (شمس) الفتان والذى طالما تغنى به شبان القرية .

فقد كانت (شمس) حقا ، شمساً منيرة على القرية وساكنيها ، تضىء بسناها وبهجتها

لياليهم الداكنة ، وتبدد بابتساماتها الساحرة أحزانهم المظلمة، وتشرح بأغنيتها الحلوة صدورهم المكلومة ، كانت مهبط القلوب ومحط الانظار والمثل الأعلى الذى ينتصب فى أذهان شبان القرية ورجالها .

وعلى حين فجأة سمع (عمران) صراخا من بين الفتيات ، يطلبن المعونة والنجدة ، فقد زلقت (شمس) بقدمها، وغاصت تحت الماء ، فأسرع لساعته وقذف بنفسه فى الترعة يبحث عن الموضع الذى استقرت به،حتى أمكنه بعد جهد ومشقة ، أن يمسك بها وأن يرفعها بساعده القوى من وسط الماء ، ثم أتى بها إلى الشاطىء وأجلسها على الحشائش الملاصقة للترعة ، وهو يحاول جهده أن يفيقها من غيبوبتها ، وكانت الفتيات يساعدنه بأن يفركن وجهها ويديها حتى تدب الحرارة إلى جسمها .

وعادت (شمس) إلى حالتها الطبيعية وكانت أول كلة لفظت بها : (أنا فين ؟) فلما أطلعتها صويحباتها على الحقيقة المرة بكت وانتحبت وصممت على ألا ترد الماء مرة أخرى ، وتفوهت ببضع كلمات تشكر بها منقذها ، ثم انصرفت معهن إلى حال سبيلها تتوكأ على ساعد أختها فاطمة.

كان (عمران) إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره ، ولم يكن كشبان هذا الجيل من سكان المدن يتيه نحافة وضعفاً ، بل كان وهو فى هذه السن فتى يافعا ، تلوح عليه امارات الرجولة والخشونة وتملأ جسمه القوة والعافية ، فلا عجب أن يتزوج أهل الريف وهم فى هذه السن .

وشغلت (حادثة الترعة) ذهن (عمران) طول يومه ، فقد تحدث بها إلى رفاقه فتيان (المكتب) ورواها لأمه ولأسرته لدى أوبته ليلا إلى المنزل .

على أن حادثة كهذه ، سرعان ماتنتشر فى أرجاء هذه القرية الصغيرة فتملأ الأسماع ، ويلهج بها كل إنسان ، وكان من جراء هذه الهالة من المجد والاحترام التى أحاطت بعمران أن أوجدت له حساداً ومنافسين من شبان القرية، وممن كانوا يتسامون بجسم (شمس) عن أن يمسه مثل هذا الشاب الوضيع الذى يعمل أبوه (خوليا) فى (حقل الباشا) وان يكون لمثل هذه الحادثة أثر فى نفس الفتاة فتحله من قلبها مكانة رفيعة .

ومرت الأيام تباعا تحمل فى أعطافها حسد منافسيه وقسوة محبيه ، وكانت أواصر المعرفة والصداقة قد انعقدت بين أسرة (عمران) وأسرة (شمس) من جراء هذه الحادثة ، وصممت والدته على أن تطلب الفتاة زوجة لولدها، إلا أنها أرجأت هذه الفكرة حتى تبيع محصول هذا العام من القطن.

وبلغ (عمران) الثامنة عشرة من عمره ، وكان شهر (اكتوبر) وهو الشهر الافرنجى الوحيد الذى يعرف اسمه سكان القرى من كل شهور السنة الميلادية ، لأن فيه تباع أقطانهم فيروا دولاب الأعمال متحركا، وارتأى (عمران) أن يقصد إلى العاصمة للتبرك بأولياء الله الصالحين حتى ينصروه على

أعدائه وحساده ممن كانوا يزاحمونه محبة (شمس)، وليبارك الله في محصوله حتى يتمكن من بيع أقطانه ويستطيع الزواج من (شمس)، فيحقق بذلك أمنية طالما خفق لها قلبه.

وعاد (عمران) إلى بلده بعد أوبته من أداء واجب الزيارة لأضرحة أولياء الله، فشعر بالايمان يعمر قلبه وبالتقوى تملأ صدره فتسد ذلك الفراغ الذى كان يحس به من قبل.

***

وذات يوم قصدت فيه (شمس) إلى سوق القرية المجاورة، برفقة أختها فاطمة لشراء بعض الحاجيات، وكانت أنوثتها قد كملت، فبرز نهداها وتوردت وجنتاها، ورآها (عمران) فتبعها عن بعد، حتى لحق بها، فلما أبصرته ارتجفت وغاض لون وجهها وازدادت نبضات قلبها، فأقبل عليها يحدثها قائلا:

(على فين كده ياشمس؟) صباح الخير أولا (وانت كمان يافاطمة!!)

فحيته بتحية ملؤها الخجل والحياء، ثم شرحت له مهمتها فى الذهاب إلى السوق، فرجاها أن يصحبها حتى يعاونها على شراء وحمل حاجياتها فقبلت منه ذلك بعد تردد.

وفى الطريق وسط المزارع والحقول أقبل عليها يحدثها أولا عن سر التقائه بها صدفة، ثم عن حادثة الترعة إلى ان تدرج بهما الحديث إلى ازيشرح لها شدة مايعانيه من الوجد والصبابة من يوم ان رآها، وعلق فؤاده بها وبحبها، وأنه ولا بد سيتذوق ثمرة هذا الحب وهو الزواج.

وكانت (شمس) تعرض عن حديثه فى بادىء الأمر، إلا أن اعتراف الأمين بهذا السر الدفين، من الوجد الصادق والرغبة الأكيدة فى الزواج، حملها على ان تستسلم له وأن تخفض لحبه جناح الذل من الرحمة.

وتعدد ذهاب (شمس) إلى سوق القرية المجاورة صباح كل أربعاء بحجة شراء بعض الحاجيات وحتى يتحدثا من وقت إلى الآخر أحاديث شتى، حديث الحب والزواج، الأمل الواسع والحلم المترامى الاطراف، حديث من يود أن يملك الدنيا ومن عليها، حتى تعاهدا على الزواج.

وتناقلت القرية شيبها وشبانها، اسم (شمس) ولاكته ألسنتها بالسوء والاشاعات الرائجة، حتى فطنت أسرتها إلى ذلك، فمنعت الفتاة عن الخروج من المنزل، حتى أنه لما ذهبت أسرة (عمران) لتخطبها، مانع والد (شمس) فى ذلك لما بين الأسرتين من التباعد من حيث الجاه والثروة، والحسب والنسب، ولأن دور التجنيد السنوى لشباب القرية قد حل موعده واقترع (عمران) لينخرط فى سلك الجندية.

فتحطم فؤاده لهذه الصدمة الأليمة التى لاحول له بها ولا حيلة، من أين له فى هذه الأزمة بعشرين جنيها يشترى بها راحته من الجندية؟ سوف يبعد منذ الصباح الباكر عن هذه القرية المحبوبة التى ازدهرت بين رياضها أحلامه وأمانيه، والتى خفق فيها فؤاده لأول مرة، إلى السودان

وسط الصحارى والفيافى ، يلفح رأسه حر الهاجرة ويذوق من عذاب الفراق أمره وأقساه ، بعيداً عن أهله وذويه .

إلا أن الايمان يملأ قلب (عمران) فعرف أن هذه إرادة الله ولا مرد لارادته ، وطلعت شمس اليوم التالى و (عمران) فى القطار يذهب به الأرض نهبا إلى (العباسية) حتى إذا ماتلقى المبادىء الأولية للجندية وأنظمتها ، سافر إلى السودان ، كجندى عامل فى بناء مجد الوطن وعنوان فخره ، وذائد عن حياضه .

وحاول مرة أن يعود باجازته السنوية إلى القرية ، فكتب بذلك إلى ابن عمه ، إلا أن الرد سرعان ماجاءه وفيه خيبة الأمل التى تعلقت بأهدابه ، فان الأفراح سوف تقام فى هذه الفترة (لشمس) حيث تتأهل بابن العمدة ، وتحطم فؤاد (عمران) لهذه الصدمة ، وحملته شدة الوجد الصادق للفتاة أن يظل فى السودان بعيداً عن رؤية أهله وذويه ، حتى لايتخذ حضوره هناك ذريعة لاشاعات يتقول بها خصومه ، فقد كان يعلم أنها إنما تزوجت بابن العمدة قسرا عنها وطواعية لرغبة أهلها الذين ساقوها إلى هذا الزوج كالأنعام ، ليبنوا مجدهم ورفعتهم على حساب العمدة .

وساورته الأفكار والهواجس المظلمة ، إلا أنه استعاذ بالله خيراً منها ، وعرف أن كل شيء إنما يجرى بارادة الله ، وكانت الشمس قد بدأت تعود وراء جبال النوبة ، وظهر الشفق بلون أحمر حتى كنت تحسبه بحاراً من دماء ، فقصد لساعته إلى مسجد المعسكر ثم توضأ واستعد لصلاة المغرب .

محمد أمين حسونه

المجلد الأول

توجد من المجلد الأول مجموعات ، ترسل المجموعة الواحدة منه خالصة اجرة البريد بالسعر الآتى :

٢٠ قرشاً صاغاً لمصر والسودان ، و ٣٠ قرشاً صاغاً للخارج

وكذلك توجد نسخ من الأعداد السابقة وثمن العدد الواحد ٣٥ مليما .